أديبة فارس

الرِّثَاءُ

بين
أبي تمام والبحتري والمتنبي

بحث وتحليل ومقارنة

وهي الرسالة التي اجتازت بها مؤلفتها امتحان شهادة الآداب العليا

في الجامعة السورية

سنة ١٣٥١ — ١٩٣٢

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة في سوريا

١٣٥١ هـ مطبعة الاعتدال * بدمشق ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

صبوت منذ الصغر الى لغة العرب وأدبهم ، يطيب لي أن أنشد مارق من أشعارهم ، وأن أروي مالطف من نوادرهم ، أترنم بها طربة فخورة ، يستهويني جمالها فأدمن المطالعة ، حتى حفظت الكثير من آثارهم مما أخذت أفطن له كلما نميت ، فأزداد لهذه الآداب شوقاً وبها اعجابا

وأنشئت كلية الآداب في دمشق ، فتقت اليها بنفسي ، ورغبت في أن أكون من طلابها ، ولكنني بت أفكر فيما قد ألاقي ، وأنا فتاة ، من العوائق والمصاعب وكنت في حيرة ، حتى سمعت أن مدير المعهد ، الشاعر الكبير ، الذي عهد اليه تدريس الأدب في هذه الكلية ، يلقي محاضرته الأولى ، فشاقني أن أسمع من طارت شهرته في عالم الأدب ، وجلسنا نستمع الى الاستاذ ، فما كاد يتم كلامه عن الأدب وأفقه وفعله وغايته حتى زالت حيرتي ، وعقدت النية على الانتساب معتصمة بقوة الايمان .

وأقمنا ثلاث سنين ، يتحفنا أستاذ الأدب بأبحاثه الطلية وآرائه الناضجة ، في طريق جديدة ، وأصول في النقد والتحليل مستحدثة ، يعود اليه فضل ادخالها في أدب العرب ، ويتعهدنا أساتذة المعهد ، في سائر فنون اللغة ، باطلاعهم الواسع وعلمهم الغزير ، حتى أشرفنا على نهاية السنة الاخيرة ، ونحن أحسن ما نكون املاء لخواطرنا ثقافة وعلما

وكدنا نشرف على الفحوص الأخيرة ،فاذا بتعديل في نظام المدرسة يفاجئنا فقد أبت ادارتها الا أن يكون لكل منا أثر يختم به دراسته ، يؤهله من ثم الى دخول الامتحانات الخطية والشفهية ، وقد أدركنا الوقت وضاق المجال ، فكل شيء يجب أن يتم بسرعة : اختيار الموضوع ،درسه ،انشاؤه ، كل ذلك في مدة لاتتجاوز عشرين يوماً

وقد اهتديت ، بعد صعوبة الاختيار واضاعة شيءٍ من الوقت ، الى موضوع رسالتي هذه ، ووافق من نفسي هوىً فشرعت في البحث ، وليس بين يديّ الا الشعر الذى أبحث فيه ، ولا ما أحتذي حذوه الا الطريقة المثلى التي خطها لنا مؤلف « المتنبي » و « الجاحظ » . وكنت في البحث مستحثة ، اذ عليّ أن أقدم عملي بأسرع ما يمكن ، فقدمته دون أن يسمح لي الوقت ولو باعادة النظر فيه ، فما احتواه من نقص ووهن انما عذري به الظروف

واذا جرؤت اليوم على أن أدفع بكتابي هذا الى الجمهور الكريم فلاعتقادي أنه جد حريص على مناصرة الفتاة في خطوتها الاولى ، والله الموفق

اديبه فارس

تمهيد

قصرت البحث في هذه الرسالة على مرثية واحدة لكل من الشعراء الثلاثة : أبي تمام والبحترى والمتنبى ، ولقد رأيت أن أثبت هذه المرثيات الثلاثة مستقلة كما هي ، أبدؤها بترجمة موجزة جدا لصاحب كل واحدة منها ، حباً باثارة اهتمام القاري منذ الان الى الامعان بما يدور عليه البحث واشراكه سلفاً في التدقيق والحكم .

أبو تمام

هو حبيب بن أوس الطائي عربي صميم ، ذكي فصيح ، درج من قرية يقال لها جاسم في حوران وترعرع في دمشق يتكسب بيديه ، ثم رحل الى مصر ، فنما تحت ظلالها الوارفة شعوره الخصيب ، حتى غدا شاعراً مبدعاً ، جيد السبك ، متين الأسلوب ، إماماً في اللغة والادب والتأليف ، عقد له لواء الشعر في عصره ، وسار الشعراء من بعده على مثاله في صوغ الألفاظ ، وطبعوا على غراره . كان المتنبي يقرأ أشعار أبي تمام ويحفظها ويقول : أيجوز للأديب ألا يحفظ شعر أبي تمام وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده ؟

يغوص على المعنى غوص من لا يبالي بالغرق ، يخترع منه ويبتدع قال صاحب المثل السائر : قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني ، وقد عدت معانيه المبتدعه فوجدت ما يزيد على عشرين معنى »

ولكن عنايته بالمعنى دعته لإهمال اللفظ أحياناً حتي يفتر ، فأراد أن يستر ذلك باستعمال البديع فكان يواتيه حيناً ويجمح به أحياناً . أحسن

قال يرثي ولده :

كان الذي خفت أن يكونا　　إنا الى الله راجعونا
أمسى المرجّى أبو علي　　موسّداً في الثرى يمينا (١)
حين انتهى واستوى شبابا　　وحقق الرأي والظنونا
أصبت فيه و كان عندي　　على المصيبات أن يعينا
كنت عزيزاً به كثيراً　　و كنت صبًّا به ضنينا
دافعت إلا المنون عنه　　والمرء لا يدفع المنونا
آخر عهدي به صريعا　　للموت بالداء مستكينا (٢)
إذا شكا غصة وكربا　　لاحظ أو راجع الأنينا
يدير في رجعه لسانا　　يمنعه الموت أن يبينا
يشخص طوراً بناظريه　　وتارة يطبق الجفونا
ثم قضى نحبه فأمسى　　في جدث للثرى دفينا (٣)
بعيد دار قريب جار　　قد فارق الإلف والقرينا
باشر برد الثرى بوجه　　قد كان من قبله مصونا
بنيَّ يا واحد البنينا　　غادرتني مفرداً حزينا
هوّن رزئي بك الرزايا　　عليَّ في الناس أجمعينا (٤)
آليت أنساك ما تجلّى　　صبح نهار لمصبحينا (٥)

(١) الثرى : الارض (٢) مستكيناً : خاضعاً (٣) الجدث : القبر (٤) الرزء : المصيبة (٥) آليت : حلفت . انساك اي لا انساك

وما دعا طائر هديلا   ورجّعت واله حنينا (١)
تصرّف الدهر بي صروفا   وعاد لي شأنه شؤونا
وحزّ في اللحم بل براه   واجتث من طلحتي فنونا (٢)
أصاب مني صميم قلبي   وخفت أن يقطع الوتينا (٣)
فالمرء رهن بحالتيه   فشدة مرة ولينا

البحتري

عربي صليبة ، طائي أصلاً ، ولد في منبج سنة ٢٠٥ ، ونشأ في البادية بين قبائل طيء ، ففصح لسانه ، ووضح بيانه . ثم عدل إلى حلب وبقياس وبغداد ، يستلهم وحيه من مشاهداته ، ويصقل حسه بتنقلاته ، حتى رقّ لفظه وراق معناه ، وجمع بين جزالة البدو ورقة الحضر ، فأجاد في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، يرسل شعره على سجيته فيجيء ملامساً للقلب ملائماً للذوق .

ويمتاز أبو عبادة بقوة الإحساس ، والقدرة على وصف القصور البديعة والأبنية الجميلة ، كوصفه لإيوان كسرى في سينيته التي تعد من روائع الشعر الوصفي عند العرب .

وفي الجملة إن البحتري شاعر انفرد برشاقة اللفظ ، وحلاوة الجرس ولذلك سميت أشعاره : سلاسل الذهب .

(١) الهديل : صوت الحمام . الواله : من ذهب عقله . (٢) اجتث : اقتلع . الطلح شجر . فنونا : اغصانا (٣) الوتين عرق في القلب .

قال يرثي الخليفة المتوكل :

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره (١)
كأن الصبا توفي نذوراً إذا انبرت ... تراوحه أذيالها وتباكره (٢)
ورب زمان ناعم ثم عهده ... ترق حواشيه ويورق ناضره
تغير حسن الجعفري وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره (٣)
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره (٤)
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت ... على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة ... تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
تخفى له مغتاله تحت غرة ... وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنايا جنوده ... ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر المعتز من كان يرتجى ... له وعزيز القوم من عز ناصره (٥)

---

(١) القاطول : موضع على دجلة (٢) الصبا : الريح تهب من مطلع الشمس تراوحه وتباكره : تأتيه في المساء وفي الصباح (٣) الجعفري : قصر المتوكل . (٤) وحش القصر : إقفاره . السرب : الجماعة من النساء . الأطلاء : أولاد الظبية ، والجآذر : اولاد البقرة الوحشية . (٥) المعتز : ابن المتوكل .

تعرّض نصل السيف من دون فتحه … وغُيّب عنه في خراسان طاهره (١)

ولو عاش ميْت أو تقرّب نازح … لدارت من المكروه ثَمّ دوائره

ولو لعبيد الله عون عليهم … لضاقت على ورّاد أمر مصادره

حلوم أضلتها الأماني ومدّة … تناهت وحتف أوشكته مقادره

ومغتصب للقتل لم يُخش رهطه … ولم تحتشم أسبابه وأواصره

صريع تقاضاه السيوف حُشاشة … يجود بها والموت حمر أظافره (٢)

أُدافع عنه باليدين ولم يكن … ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره

ولو كان سيفي ساعةَ الفتك في يدي … درى الفاتك العجلان كيف أساوره

حرام عليّ الراحُ بعدك أو أرى … دماً بدم يجري على الأرض مائره (٣)

وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر … يد الدهر والموْتور بالدّم واتره (٤)

أكان وليّ العهد أضمر غدرة … فمن عجب أن ولّي العهد غادره

فلا ملّي الباقي تُراث الذي مضى … ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا … من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره (٥)

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر … هرقتم وجنح الليل سود دياجره

كأنكم لم تعلموا من وليّه … وباغيه تحت المرهفات وثائره

وإني لأرجو أن تردّ أمور كم … إلى خلف من شخصه لا يغادره

مقلّب آراء تُخاف أناته … إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

---

(١) فتحه: وزيره الفتح بن خاقان . طاهره: قائده طاهر . (٢) الحشاشة: بقية الروح في الجسد (٣) مائره: سائله (٤) الوتر: الثأر . (٥) وأل: النجا .

أبو الطيب المتنبي

عربي مذحجيّ يمان ، وشاعر من شعراء العرب العظام ، خلّد بشعره وتخذ الدهر من رواة قصائده

فسار به من لا يسير مشمراً وغنّى به من لا يغني مغرّدا

ولد بالكوفة سنة ٣٠٢ وتعلم في البادية حتى غدا عالماً بفنون اللغة والأدب وأيام الناس . ثم انتقل الى بلاد الشام يطلب العلم ويلتمس الرزق ويمدح كل من يأمل نداه حتى التحق بسيف الدولة بن حمدان فغرق في مكارمه ومدحه بقصائد خلّدت ذكرهما على مرّ العصور .

وقد خلّف لنا المتنبي في أبيات من الشعر حكماً وأمثالاً تفصح عن خوالج كل نفس في كل عصر ومصر ، لملاءمتها هوى النفوس ومواءمتها اذواق الناس . فكأن ابا الطيب لسان حال البشر جميعهم ، لأنه استنبط حكمه وامثاله من التجربة وبنى فلسفته على القوة والغلب ، ومن ثم برع في الحكمة والمثل ووصف المعارك والحروب حتى قال عنه الشريف الرضي : واما ابو الطيب المتنبي فقائد عسكر .

قال يرثي جدّته :

ألا لا أري الأحداث مدحاً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ولا كفها حلما (١)

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما ابدي ويكري كما ارمى (٢)

---

(١) الأحداث : نوب الدهر (٢) كما أبدي : كما خلق . ويكري كما أرمى : وينقص كما زاد .

لكِ الله من مفجوعة بحبيبهـا ... قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن الى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيت عليها خيفة في حياتها ... وذاق كلانا ثكل صاحبه قِدما(١)
ولو قتل الهجر المحبين كلهم ... مضى بلد باق أجدَّت له صَرما
عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا ... فلما دهتني لم تزدني بها علما
منافعها ما ضرَّ في نفع غيرها ... تَغذَّى وتروى أن تجوع وأن تظما
أتاها كتابي بعد يأس وترحة ... فماتت سروراً بي فمت بها غما(٢)
حرام على قلبي السرور فإنني ... أعدّ الذي ماتت به بعدها سما
تعجّب من لفظي وخطي كأنما ... ترى بحروف السطر أغربة عصما(٣)
وتلثمه حتى أصار مداده ... محاجر عينيها وأنيابها سحما
رقا دمعها الجاري وجفَّت جفونها ... وفارق حبي قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها إلا المنايا وإنما ... أشد من السقم الذى أذهب السقما
طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني ... وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما
فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها ... وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصما
وكنت قُبيل الموت أستعظم النوى ... فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
هبيني أخذت الثأر فيك من العدى ... فكيف بأخذ الثأر فيك من الحُمَّى
وما انسدت الدنيا عليَّ لضيقهـا ... ولكنَّ طرفاً لا أراكِ به أعمى
فوا أسفا ألاَّ أكبَّ مقبلاً ... لرأسك والصدر الذي ملئا حزما

---

(١) قدما : قديما (٢) الترحة : الحزن والهم (٣) الغراب الأعصم في جناحه بياض وهو نادر .

وألا أُلاقي روحك الطيِّب الذي | كان ذكيُّ المسك كان له جسما
ولو لم تكوني بنت أكرم والد | لكان أباك الضخم كونك لي أُما
لئن لذَّ يوم الشامتين بيومها | لقد ولدتْ مني لانفهم رغما
تغرَّب لا مستعظماً غير نفسه | ولا قابلاً إلا لخالقه حكما (١)
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة | ولا واجداً إلا لمكرمة طعما (٢)
يقولون لي ما أنت في كل بلدة | وما تبتغى ما أبتغي جلَّ أن يُسمى

إلى آخر ما افتخر به حتى يختم قصيدته بقوله :

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني | ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

---

(١) تغرب : يعني نفسه
(٢) فؤاد عجاجة : قلب غبار الحرب

البحث

نرى الشعراء يتغزلون ويصفون ، ونراهم يفتخرون ويرثون ، وكثيراً ما بالحكمة ينطقون ، وما شعرهم إلا عواطف تهيج في قلوبهم ، وأفكار تدور في خواطرهم . فإذا تغزل الشاعر أو شبّب بالنساء فإنما بعثه حب اللهو والشهوات ، وإذا وصف فأدق الوصف وأجاد التشبيه فإنما استعان بدقة نظره ونفاذ بصره ، واذا افتخر فنوّه بمآثره وفعاله ، وتاه بعقله واعتدّ بقدرته ، فإنما أوحت إليه عظمة نفسه وكبرياؤها ، وإذا ضرب الأمثال وفاضت على لسانه الحكمة فإنما ألهمته التجارب وغذّته الخبرة بأمور الدنيا ، أما إذا رثى وتوجع فليس يدفعه إلا الألم وفرط الحس ، وليس ينطقه إلا الأسى والحزن .

مصدر الرثاء

فالرثاء الصادق إنما ينبعث عن شدة الشعور والإحساس ، وناهيك بالشاعر إحساساً ، به يصير شاعراً ، وعلى قدره ترتفع منزلته

بين الشعراء أو تنحط . وهذا الشعور البالغ ، تنبهه الحوادث وتستفزه النوائب ، ولكن للحزن عليه سلطاناً أقوى وأثراً أعظم ، فإنه إذا تغلغل في أعماق قلب الشاعر هزه هزاً ، فلربما استطاع الشاعر أن يكتم حيناً ما نزل به من أمور هذه الحياة ، ولكنه لن يستطيع أن يحبس سحابة ألم مرّت في سمائه ، فتراه مضطرب النفس ، مشغول الفكر لا يهدأ باله ولا يستقر قراره ، حتى تسيل عبرته ، فتنقشع بها غيوم نفسه وتتبدد آلام قلبه ، فيستريح . وكأنّ في جوف الشاعر شيئاً أو مادةً شديدة التأثر سريعة الامتزاج بالحزن ، فلا يتسرب إلى قلبه شيء منه حتى يمتزجا ، فيخرج من هذا المزيج شعر يفيض حسرة وكآبة .

احساس الشاعر

فأنت ترى أن الشاعر مفرط الإحساس والشعور ، يألم لأقل شيء ويتضايق من كل شيء ، فهو إن أحس بضعف في جسمه ملأ الدنيا توجعاً وشكوى ، وإن أصابه مرض صرف همة إليه ، يراقبه أشد المراقبة ويصفه أدق الوصف ، ويتأفف منه ما ألح عليه بالأذى ، فكيف به أمام أعظم المصائب ، أمام الموت الرهيب ، مفرق الأحباب ، وواتر الآباء وثاكل الأمهات ؟ كيف لا يضطرب قلبه أمام هذه النازلة فتجود عيناه بالدمع سحاً ليطفئ لهيب قلبه المتقد لوعة وأسى ؟ فهو إذاً جدير بالرحمة والشفقة ، خليق بان يرقّ له ويؤسف لحاله ، ولكن يجب ألا نرق ولا نأسف كما ينصحنا «أناتول فرانس» . فإنه يقول : «قلق الشعراء لذيذ ، فلا ترثوا

لهم . إن الذين يغذّون يعلمون كيف يخلعون حلة بيضاء على سواد قنوطهم ، فلا سحر إلا سحر الألفاظ ، فالشعراء يتعزون وما عزاؤهم إلا الصور . »

فلولا قلق الشعراء وحزنهم لما تعزوا ، ولو لم يتعزوا لما طلعوا علينا بهذه الصور ، ولكُنّا خسرنا ما تضن به النفوس المتعطشة إلى العزاء أشد الضن .

الرثاء الصادق والرثاء الكاذب

قلنا إن الشاعر زائد الإحساس ، ألمه فوق ألم الناس ، فما هو أفق هذا الحس ، وإلى أين تمتد ظلاله ؟ هل يقف عند حد نفسه ، في أهله وبيته ، أم هو يتأثر بكل ما يرى ويسمع ؟ — يقول الأديب الفرنسي أناتول « إن الشاعر يجمع هوائج النفوس فيبعث حياة كل واحد من البشر ، يشعر بفرح كل من يفرح ، ويحس بألم كل من يألم في هذا العالم . »

نعم يحس الشاعر بألم كل من يألم في هذا العالم ، ولم نسمه شاعراً حتى عرفنا فيه ذلك ، ولكنني أعتقد أن آلامه لا تتساوى ، فكثيراً ما يقسو قلبه فيأتي شعره خالياً من العواطف الصادقة والحزن الصحيح .

مثال من شعر البحتري

إليك مثلاً أبا عبادة البحتري ، فإن له في بعض من رثاهم تباكياً ليس فيه رائحة الحزن ، وليس ينم عن شيء من الألم والوجع ، لأنه لم يتسرب إلى قلبه شيء من اللوعة على فقدهم حتى يظهر أثرها في شعره . فكأنه يبكاته هذا يقضي واجباً عليه بالتكلف ،

كما تنوح النوّاحات لقاء أجر يتناولنه . فكيف نصدق أن رثاءه في أبي سعيد منبعث عن جوارحه وهو يقول :

أنظر إلى العلياء كيف تضام ... ومآتم الأحساب كيف تقام

كيف نصدق عاطفة من يلجأ إلى مثل هذه المبالغات ، فيستعيض بها عن بث عواطف الحزن التي كان يجب أن يمتلئ بها قلبه قبل الرثاء ؟ إن العلياء لا تضام والأحساب لا تفنى بموت رجل .

ثم ألا يلزمه أن يجعل للراحل في مرثيته صورة يعرف بها دون سواه ؟ فتأمل في هذه الصورة التي جاد بها البحتري على أبي سعيد :

أين السحاب الجود والقمر الذي ... يجلو الدجى والضيغم الضرغام

أين العبوس المشمئز إذا رأى ... جنفاً وأين الأبلج البسام (١)

تأمل افلا ترى انها صورة تنطبق على كل من أردنا رثاءه من الناس ، ولا تعرف بأنها لأبي سعيد أو لأبي عمرو إلا إذا رأينا اسمه في رأس القصيدة ؟ وقد تتعدد هذه الأمثال . ولست اريد أن أجرد الوليد عن العاطفة في هذه القصيدة فإن قوله فيها :

يا صاحب الجدث المقيم بمنزل ... ما للأنيس بحجرتيه مقام

قبر تكسر فوقه سمر القنا ... من لوعة وتشقق الأعلام

إن هذا القول لا يخلو من عاطفة ، فأنا اريد ان أوافق المفكر الفرنسي

(١) الجنف : الميل . الأبلج : المشرق الوضاح

بأن الشاعر هنا قد ألم لمصاب الرجل ، لكنني أعتقد بأنه ألم ضعيف كان للبحتري أعمق منه ، وعاطفة ناقصة كان له أتم منها ، عندما رثى وليّ نعمته المتوكل الذي عظمت محبته له بتلك القصيدة التي خلد فيها الخليفة على وجه الدهر ، وهي القصيدة التي بنيت عليها البحث .

مثال من شعر المتنبي

وهذا أبو الطيب المتنبي ، مع فرط إحساسه وتوتر أعصابه ، لم نجئ مراثيه متقاربة في العواطف والآلام ، فشتان بين مرثيته في محمد بن إسحق التنوخي ، هذه المرثية التي تخونه فيها عاطفته فيقول :

خرجوا به ولكل باك حوله　　صعقات موسى يوم دك الطور

والشمس في كبد السماء مريضة　　والأرض واجفة تكاد تمور

ويبالغ في تأثير ميتته على الأرضين والكواكب ، حتى يشبه تلك النائحات المأجورات في كذب عواطفه ـ شتان بين هذه المرثية وبين ما يقول في رثاء جدته ، التي أسال موتها عبرته وهاج نفسه ، حتى فاضت عواطفه الصادقة على لسانه مرة كالصبر . وسترى كيف تشاركه بحزنه ويحملك معه على بكاء جدته

ثم إليك أبا تمام ، فإن فيه لحجة ، فإذا لم يكن الأسى عند أبي عبادة أو أبي الطيب ممزوجاً في طباعهما ، فقد فطر هذا عليه وامتزج بنفسه واشتهر به ، فقد كان له من فرط الإحساس ما قلّ أن يكون لشاعر غيره ، حتى قال فيه أحد الحكماء في مجلس محمد بن عبد الملك الزيات ، بعد أن أنشده قصيدته في مدحه ، وأولها :

ديمة سمحة القيـاد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

قال الحكيم بعد أن أنشد هذه القصيدة : إن هذا الفتى يموت شاباً . » فقيل له من أين حكمت عليه بذلك ؟ فقال : « رأيت فيه من الحدة والذكاء والفطنة ، مع لطافة الحس وجودة الخاطر ، ما علمت به أن النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده . » وفي حقيقة الأمر ، إن أبا تمام لم يتجاوز الأربعين ربيعاً .

وأبو تمام نفسه ، الذي كان يذوب من فرط الحس ، والذي دعاه البحتري « نوّاحة » لما كانت تنطوي عليه نفسه من شديد الحزن ، وما كان يميل إليه بطبعه من النوح والبكاء ، قد تضعف عاطفة الألم عنده ، فلا نجد في بعض مراثيه أثراً للوعة قلب ولا حرقة لكبد . فها هو يقول في رثاء بني حميد كما قال زميلاه في أبي سعيد وإسحق التنوخي :

كذا فليجل الخطب وليفـدح الأمر
فليس لعين لم يفض مـاؤها عذر

توفيت الآمـال بعـد محمـد
وأصبح في شـغل عن السفر السفر

وليس في هذا إلا استفظاع الخطب والمبالغة في تأثيره ، تلك المبالغة التي قلنا بأن الشاعر إنما يلجأ اليها عند برودة العـاطفة . وعلى هذا يلتحق أبو تمام في زمرة تلك النائحات .

غير أنني لا أريد أن أقول بأن أبا تمام يغلب عليه هذا النحو في مراثيه ، فالرجل له مرثيات خالدة على وجه الدهر ، وقد أجاد في هذه الناحية كل الإجادة ، وحلق في سمائها كل محلق ، ففاضت عواطفه في كثير من مواضعها . قال يرثي أصدقاء له ثلاثة :

لي في أصيبين شجوٌ يستهل به دمعي وشجوٌ بسامراً وأران

ثلاثـة سلبتنيهم حتوفهم بعد ائتلاف وخلّفتني وأحزاني

فلو وفيت بعهد الود بعـدهم أتبعتهم بوفـاء روح جثماني

فإن في هذه الأبيات من صدق العاطفة ما فيها ، وما أصدق من يضيق به العيش بعد موت عزيز عليه ، والأمثال على صدق عاطفته كثيرة ، بل تكاد أشعاره في الرثاء تعرف بهذا الطابع الخاص ، مما يدل على ماجبلت عليه نفس أبي تمام من شدة الإحساس - قلت لا أريد أن أجعل أبا تمام نوّاحة مأجورة ، ولكنني أريد أن أستبين بأن الأثر الشعريّ في الرثاء يختلف باختلاف عواطف الشاعر نحو المرثيّ ، يزداد حسناً كلما زادت محبة الشاعر للفقيد ، فإن ألم الشاعر يكون أعظم وأشد حرقة ، فيما لو نزلت المصيبة عليه نفسه في ابنه أو أمه أو وليّ نعمته ، ولا شك بأن الأثر يكون أعمق والحزن أدهى وأمرّ .

شعراؤنا الثلاثة في قصائدهم

تلك هي حال شعرائنا الثلاثة أبي تمام وأبي عبادة وأبي الطيّب الذين نسعى في هذه العجالة أن نقارن بين آلامهم على أعزائهم ، فقد تساوت مصائبهم : ذاك أصيب في فلذة كبده ، وذاك بوليّ نعمته ،

وهذا في جدته التي كانت له بمثابة الأم الرؤوم ، فرثى كل منهم صاحبه . وقد اخترنا هذه المراثي لأنه من الحق علينا أن نعمد في المقارنة إلى القصائد المتشابهة ، فليس فيمن رثى أبو تمام أعز عليه من ولده ، ولا فيمن بكى البحتري أحب إليه من ولي نعمته المتوكل ولا فيمن جزع عليهم المتنبي أقرب إليه من جدته .

وقد يكون من الخير أن نقدم كل قصيدة من هذه القصائد على حدة ، فنقف على عاطفة الشاعر في كل منها ، ونتلمس صوره ، ونعرف طبيعة ألمه ، حتى إذا ما انتهينا منها عدنا إلى المقارنة ، وميزنا بين العواطف التي خبرناها ، وها نحن نبدأ بالمتقدم .

. . .

البحث في مرثية أبي تمام

رزق أبو تمام ولداً ، ولست أقول بأنه أحبه أو شغف به ، لأن من عرف إحساس أبي تمام ، ثم أضاف إليه الغريزة النوعية في حب البنين ، يجد أن كلمة الحب وما في معناها لا تكفي لتعبر عما يكنه قلب هذا الوالد من العطف على ولده . فلم يزل يغذيه بروحه ويحوطه بعنايته ، حتى شب وترعرع على ما يبغي أبوه ويؤمل ، وما أن تم له ذلك ، ورآه نجمة تتلألأ في سمائه يشد أزره في أمور دنياه ، حتى مدت المنون إليه يدها ، واقتلعته من بين ظهراني أبيه ، فأصيب الأب بأعز شخص لديه ، أحبه حب العاشق الولهان ودفع عنه كل أذى ، ولكنه لم يستطع أن يدفع عنه الموت ، إذ ليس ذلك بمقدوره :

أمسى المرجّى أبو علي موسّداً في الثرى يمينا
حين انتهى واستوى شبابا وحقق الرأي والظنونا
أصبت فيه وكان عندي على المصيبات أن يعينا
كنت عزيزاً به كثيراً وكنت صبّاً به ضنينا
دافعت إلا المنون عنه والمرء لا يدفع المنونا

مرثية أبي تمام

وقد قدّر لأبي تمام أن يشهد ابنه يتقلب على فراش الموت ، فقام بجانبه ، شديد الروع عليه ، يحدّق فيه ، ويدقّق في حركاته وسكناته ، يراه ممدداً صريع الداء لا يستطيع معه حراكاً ، ويراه يشكو الغصة كلما عاودته سكرة من سكرات الموت فيئن طويلاً ، ثم يراه كيف يلوك لسانه ليفصح عما يريد ، فيحول الموت دون بغيته ، ولا يستطيع إلى ذلك سبيلا :

آخر عهدي به صريعاً للموت بالداء مستكينا
إذا شكا غصة وكربا لاحظ أو راجع الأنينا
يدير في رجعه لسانا يمنعه الموت أن يبينا

ولم يزل يراقبه ويثبت نظره في وجهه ، ويتابع حركة عينيه ، فيراه تارة يحدّق بهما وطوراً يطبق جفنيهما ، حتى أسلم روحه العزيزة ، ولفظ نفسه الأخير ، فأصبح من سكان القبور :

يشخص طوراً بناظريه وتارة يطبق الجفونا
ثم قضى نحبه فأمسى في جدث للثرى دفينا

ذهب إلى الدار الآخرة ، بعيداً عن دار أبيه ، ففارق الأب

بفراقه أليفه وقرينه ، وهو وإن كان بعيداً في داره ، ولكنه لن يزال قريباً من قلب أبيه :

بعيد دار قريب جار قد فارق الإلف والقرينا

وكأن قلب أبي تمام قد امتلأ أسىً وحزناً ، فأخذ يندب ذلك الوجه الكريم المصون ، آسفاً عليه يلامس الثرى :

باشر برد الثرى بوجه قد كان من قبله مصونا

وبلغت منه هذه المصيبة مبلغاً استهان بعدها كل مصيبة من أنّى أتت وحيث حلّت ، فليس ينسى ابنه على طول السنين وكرّ الأعوام :

مرثية أ م

هوّن رزئي بك الرزايا عليّ في الناس أجمعينا

آليت أنساك ما تجلّى صبح نهار لمصبحينا

ثم التفت إلى نفسه ، وقد أثقلته المصيبة ، فلا يدري ماذا حلّ به ، كان يشعر بأن لحمه يذوب ، وجسمه يتقطع إربا ، وقد نفذ الحزن إلى صميم قلبه ، فكاد أن يقضي عليه :

وحزّ في اللحم بل براه واجتثّ من طلحتي فنونا

أصاب مني صميم قلبي وخفت أن يقطع الوتينا

وقد بلغ في حزنه الغاية القصوى ، فلا بد له من شيء يتعزى به في مصابه ، فلجأ إلى الدين يجد به ما يسرّي عن نفسه ، إذ لا مردّ لحكم الله ، فإن المعاد إليه ، والمرء عاجز عن دفع القدر ، ولا يزال الإنسان ينتقل من حال إلى حال ، قال :

كان الذي خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا

وقال: دافعت إلا المنون عنه والمرء لا يدفع المنونا

وقال: فالمرء رهن بحالتيه فشدة مرة ولينا

والظاهر أن أبا تمام لم يخلص هو أيضاً، كسائر من أنعم الله عليهم بنعمة العقل وسعة الفهم، من اولئك الأعداء الذين يدفعهم حسدهم ولؤمهم إلى الشماتة حتى بالموت. وهل في الموت شماتة؟ فقد أحس بشماتة الشامتين بعد وفاة ابنه، فعاد يندد بشماتتهم، ويذكرهم بأنهم لا محالة ميتون، ولا عار على من يموت، فلو كان في الموت عار لما توفي خير البرية محمد عليه الصلاة والسلام:

فلا يشمت الأعداء بالموت إننا سنخلي لهم عن عرصة الموت موردا

ولا يحسبن الموت عاراً فإننا رأينا المنايا لم يدعن محمدا

ثم يشتد ألمه من قلة مروءتهم فيأخذ بالتهديد، فإنه لن يسكت عنهم وسيلاحقهم وينال منهم:

ولا يحسب الأعداء أن مصيبتي أكلّت لهم مني لساناً ولا يدا

تحليل عاطفة ابي تمام في رثائه

فكيف ترى العاطفة في هذا الرثاء؟ – ما أشرفها وأكرمها! إنها صادقة لا شائبة فيها. وهل في بكاء الوالد ولده من كذب؟ إنني عبثاً أحاول مهما نقبت، أن أجد في هذه المرثية بأجمعها بيتاً واحداً خلا من علامات الألم أو شطراً ضعفت فيه عاطفة الحزن والأسى. وأنّى لي أن أجد ذلك، والقصيدة خارجة من أعماق النفس في طريقها على قلب مفجوع وكبد ملذوع. فهي تخرج

من أعماق النفس لتدخل في أعماق النفس . كل ما فيها حزين بعاطفتها ورنتها وألفاظها . وكيف لا تفيض هذه الأبيات حزناً ولوعة ، وهي منبعثة عن قلب شاعر وقف أمام فلذة كبده ، على فراش الموت ، ينظر إليه وهو يجود بروحه ، فلم يلوِ وجهه كما يفعل الكثيرون ، ليتخلص من عذاب هذا المشهد المؤلم ، بل آثر البقاء بجانبه والنظر إليه رغماً عما ينتابه من الآلام ؟ فلا يزال يراقبه إذا أنّ أو تقلب ، إذا حرّك لسانه أو شفتيه ، إذا حدّق بعينيه أو أطبق جفنيه ؟ فما أصدق هذه العاطفة ! ما أقوى عاطفة من يستسهل كل خطب بعد خطب ابنه ! ما أشد حزن من آلى على نفسه أن يذكر فقيده صباح كل يوم ! كيف تكون عاطفة من يشعر بأن الدهر يبري لحمه ويقطع منه إرباً بعد فقدان حبيبه ، وكيف حال من يحس بأن في قلبه وتيناً يُجذ ؟ ليت شعري أيكون بكاء أصدق من بكاء الوالد على ولده لا سيما وإن الأب شاعر مثل أبي تمام ؟ ليس في هذا الرثاء باعث غير الحزن ، إذ لا مطمع فيه من أطماع الدنيا ، فلا الشاعر يؤمل جائزة من أقارب الفقيد ، ولا هو يطمح إلى منصب يصل إليه بعونهم ، ولا هو ينظم قصيدة يباري فيها شعراء عصره ، لأنه لم يتكلف الألفاظ ، ولم يفكر في المحسنات البديعية ، وقد كلف بها ، فجعل لها المحل الأسمى في سائر شعره ، فما أنطقه إلا باعث نفسه إحساسه العميق .

وقد احتواه الحزن ، فابتعد به عن كل شيء في العالم ، أنساه

الطبـاق والجناس ، والاستعارة والكناية ، وكل ما أشبه ذلك كما رأيت ، فلا ينطق إلا بقدر ما يعبّر به عن عاطفته بغير تكلف ولا تخيُّر . فتراه ينطق بالألفاظ عفواً ، فتخرج موافقة لعواطفه ، في معناها من الحزن والألم كما في قلبه منهما ، وفي كل تركيب من تراكيبه من معنى الحرقة كما في فؤاده منها . فقد كان موت ابنه عنده « مصيبة » ، وقد رآه « صريعاً للموت » « مستكيناً بالداء » يشكو « غصة وكرباً » يراجع « الأنينا » . ثم ينتقل لنفسه فهو « حزين » « مرزوء » يتخيّل « هديل الحمـام » و « حنين الواله » ويشعر بلحمه « يُحزّ ويبرى » وفي قلبه « وتينٌ يُقطع » يقول : « إنا إلى الله راجعونا » ومثل هـذا اعتاد أن يقول المصابون المفجوعون .

من هـذه الأجزاء تتركب مرثيته وبهذه الألفاظ عبّر أبو تمام عن عواطفه وهي كما تراها ألفاظ الأسى والوجع ، وعلى هذه الصورة يجب أن تكون المراثي ، إذا كانت خارجـة عن قلب مكلوم وفؤاد مفجوع .

وله في رثاء أخيه مثل هذه العاطفة ، ولا بأس أن نذكر أبياتاً منها لتكون ترجماناً آخر عن عاطفة أبي تمام ، قال :

لله مقلته والموت يكسرها   كأن أجفانه سكرى من الوسن

يرد أنفاسه كرهـاً وتعطفها   يد المنية عطفَ الريح للغصن

يا هول ما أبصرت عيني وما سمعت   أذني فلا أبصرت عيني ولا أذني

لم يبق من بدني جزء علمت به   إلا وقد حلّه جزءٌ من الحزَن
كان اللحاق به أهنا وأحسن بي   من أن أعيش سقيم الروح والبدن

ما أرقّ عطفك وعاطفتك أبا تمام ! ما أصدق حزنك وأشد روعك على فقيدك ! أنت أنت مع ابنك كأخيك : تراه على سرير الموت فيتولاّك الذعر ويقف بك الحنوُّ ، تراقب حركة عينيه والموت يكسرها فتذبل أجفانها ، تدقّق في أنفاسه وهي تغالب الموت فتسكن تارة وتعود إليها الحياة أُخرى ، أنت أنت أمام هذا المشهد الرهيب ، تثبت إلى النهاية حتى ينالك من الحزن ما تشعر بتأثيره في كل جزء من أجزاء بدنك .

..

إلى هذا المدى البعيد بلغ حزن أبي تمّام على ولده وفلذة كبده ، فعلينا بالبحتري نتلمّس في قصيدته حزنه على مولاه ، وإلى أيّ مدىً بلغ وإلى أي أفق امتدّ .

ولا بدّ هنا أن نعرف مقدار تعلُّق البحتري بالمتوكل ، فإن في معرفة ذلك ما يعيننا على فهم روح مرثيته فيه ، ويكشف لنا خفايا الشاعر نحو الأمير .

حتري قبل
ساله بالمتوكل

كان المتوكل أول خليفة وأمير اتصل به البحتري لمّا وفد إلى العراق ، وكان قبل اتصاله به فقير الحال قد أعوزه الدهر ، على ما رواه لنا صالح التنوخي المنبجي قال : « رأيت البحتري عندنا ، قبل أن يخرج إلى العراق ، يجتاز بنا في الجامع ، يمدح

أصحاب البصل والباذنجان ، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه .» ويؤيد ذلك ما روي عن البحتري أنه قال : « كان أول أمري في الشعر ونباهتي فيه أني صرت إلى أبي تمّام وهو بحمص ، فعرضتُ عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل عليّ وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال لي : أنت أشعر من أنشد ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلّة . فكتب إلى أهل معرّة النعمان وشهد لي بالحذق بالشعر ، وشفع لي إليهم ، وقال امتدحهم . فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ، ووظّفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكان أوّل مال أصبته .»

فقره وسعيه و... الرزق .

فقد كان يشكو الفقر في أول أمره ، ولكنه كان يسعى ويطمح لجمع المال والإثراء ، ولم يرض برقة الحال والصبر على الفاقة ، بل ضرب في أطراف البلاد ، ابتغاء الرزق ، لأنه كان يعتقد بأن الرزق لا يكون إلا لصاحب العزيمة ، قال في ذلك :

ليس الزمان بمعتبي فذربني   أرمي تجهّم خطبه بجبيني (١)
وخد القلاص يردّني لك بالغنى   في بعض ذا التطواف أو يرديني (٢)
والرزق لليقظ المشيّع رأيه   بالعزم لا للعاجز المأفون (٣)

وكأنه فهم قيمة الأدب ، وأدرك أن من واجب صاحبه أن

---

(١) بمعتبي : من أعتبه إذا أزال شكواه . ذربني : دعيني . تجهم خطبه : شدة مصيبته . (٢) وخد القلاص : سرعة النوق . يرديني : يهلكني .
(٣) المأفون : الضعيف الرأي والعقل .

»

برفعه إلى مستوى يليق به ، فلا يرضى بذل الفقر ولا يستسلم إلى الخمول :

وعزّ بذي أدب أن يضيق بعيشته وسع هذي البلاد
إذا ما الأديب ارتضى بالخمول فما الحظ في الأدب المستفاد

وغالى في ذلك ، فانقلبت به الحال ، حتى أصبح يعبد المال ، وصار يطلب من ممدوحيه أن يكثروا إليه العطاء مصارحة :

لا تقلل إذا هممت بجدوى إنّ شرّ الأعداد عندي القليل (١)

وما زال هذا شأنه ، يتنقّل من بلد إلى آخر في طلب ما يتمنّاه من المال ، حتى ألقى عصا الترحال في دار الخلافة عند المتوكل ، فوجد في ظلاله ما كان يؤمله من جزيل العطاء ، فاغتبط عيشه بعد ذبولة :

اتصاله بالمتوكل واغتباطه .

بنعمى أمير المؤمنين وفضله غدا العيش غبطاً بعد طول ذبولة

إذ جعل يمدحه بقصائد سلسلة الألفاظ ، يسهل فهمها على خليفة قلّ احتفاله بالأدب واللغة ، فأحبه المتوكل ، وأولاه الكثير من طوله وإحسانه ، حتى امتلأت يداه وصار يتفضل على الناس ، واثقاً دوماً بتجديد العطاء :

من شاكر عني الخليفة في الذي أولاه من طول ومن إحسان
ملأت يداه يدي وشرّد جوده بخلي فأفقرني كما أغناني
ووثقت بالخلف الجميل معجلاً منه فأعطيت الذي أعطاني

(١) الجدوى : العطاء .

المودة بين الخليفة وشاعره .

ويظهر أن العلائق قد توطّدت من ثَم بين الخليفة وشاعره ، فلا يزال البحتري يلازمه كنديم لا يفارقه ، والدليل على ذلك أنه اصطحبه في سفره إلى دمشق . وهذا مما يجعلنا نعتقد بأن المحبة قد عقدت أواصرها بين الرجلين ، فمال قلب البحتري إلى المتوكل بشيء من الإخلاص :

إليك أمين الله مالت قلوبنا   بإخلاص نزّاع إليك هيام

فإذا قضى المتوكل نحبه ، فلا عجب أن يرثيه أبو عبادة ، ولا عجب أن تصدق فيه عاطفته ، لأنه يرثي به منعماً ، رفل في أيامه بثياب العز والغنى ، وشخصاً كان له في قلبه شيء من المحبة والإخلاص . فهل صدقت فيه عاطفته ؟ هذا ما يكشفه لنا البحث الدقيق في تلك المرثيّة .

البحث في مرثية البحتري

قضي الأمر فمات المتوكل ، مات الخليفة وبقي شاعره في قيد الحياة ، فوجب عليه رثاؤه وقد أولاه من نعمه ما أولاه ، ولم ينس البحتري واجبه هذا ، وفيما هو يفكر بما يقول إذا به على شاطىء القاطول حيث الجعفريّ قصر المتوكل ، وقد بليت محاسنه وأناخ الدهر عليه بكلكله ، ولعبت بجوانبه الرياح فلا تبقي ولا تذر ، فقال :

محل على القاطول أخلق داثره   وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
كأن الصبا توفي نذوراً إذا انبرت   تراوحه أذيالها وتباكره

وقف على ذلك القصر العظيم حيث قتل سيده ، فعادت إلى ذهنه ذكريات الزمان الناعم ، وساعات الأنس والسرور التي قضاها بظلال القتيل ، وراعه ما تغيّر من حسن ذلك الفردوس الهادىء وما هُدّ من أركانه ، وكيف أصبح قفراً بعد أن كان يزهو بسكانه :

ورب زمان ناعم ثَمّ عهده ترقّ حواشيه ويورق ناضره
تغيّر حسن الجعفري وأنسه وقوّض بادي الجعفري وحاضره
تحمّل عنه ساكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقابره

مرثية البحتري

وقف تلك الوقفة فتجدّد أساه ، إذ أراد المقابلة بين حال القصر الحاضرة ، وحاله الغابرة في حياة سيده فرأى الفرق شاسعاً :
فبينا كان بالأمس بهجة لزائره إذا هو اليوم يبعث الأسى في النفس :

إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

ثم رجعت به الذاكرة إلى تلك الليلة المشؤومة التي قلب فيها عالي الجعفري سافله على مشهد منه ، فتصوّر كيف ذعرت نسوة القصر ، فخرجن يهرولن صائحات بالرحيل ، يمزّقن الستائر على عجل ، فما هي إلا لحظة حتى أقفر القصر وأقوى من سكانه ، فسكنت حركته ، وذهب بهاؤه ، فكأنه لم يكن مركزاً للخلافة تشع منه أنوارها ويشرق زاهرها :

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتّكت على عجل أستاره وستائره

ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره

ثم نظر إلى هذا القصر نظرة أخرى ، فأخذ بالندبة . يندب ماذا ؟ ـ أخذ يندب عظمة هذا القصر الذي استحال إلى خراب ، يندب الهيبة التي كانت تحف بمقاصيره على أيام خلافة المتوكل الزاهرة ، يندب تلك الحجب الملوكية التي كانت تلقي الرهبة في قلب الطارق أمام الأبواب . وهذه العظمة تذكّر بصاحبها ، وقد ذكّرته بالمتوكل ، فراح يسأل عن ذلك السيّد الذي كان مرجعاً في النائبات وصاحب الأمر والنهي في البلاد :

فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت بهيبتها أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره

مرثية البحتري

وعلى ذكر المتوكل والسؤال عنه ، امتلأت مخيّلته بذكرى مقتله ، فانتقل إلى وصف ذلك وما أحاط به من الأمور التاريخية : فقد قتل المتوكل بمؤامرة دنيئة أُحكم تدبيرها ، إذ لم يلجأ الجاني إلى النضال الشريف ، بل اختار طريقة الاغتيال ، فتخفّى له في قصره الآمن وهاجمه ، يا للجبانة ! على حين غرّة ، فلم تنفعه جنده ولم تجده أملاكه وذخائره ، فذهبت دماؤه هدراً ، لا من يطالب بها ، ولا من يبغي ثأراً ، إذ قعد ابنه المعتز عن ملاحقة المعتدي لأمرٍ ما ، ولم يقم بواجبه نحو أبيه ، فلم يبق للقتيل ناصر :

تخفّى له مغتاله تحت غرّة وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

ولا نصر المعتز من كان يرتجي   له وعزيز القوم من عزَّ ناصره

ولم يعدم المتوكل من يخلص له ويفديه ، فيقوم بطلب ثأره بعد وفاته ، بل كان له من وزيره « الفتح » وقائده « طاهر » ما يكفي لمثل ذاك . ولكن الجاني قد أحكم المؤامرة كما قلنا ، فاغتنم فرصة غياب القائد بعيداً في خراسان ، وانتهز وجود الوزير أعزلاً مع الخليفة في وقت واحد ، مما دعاه إلى المقاومة إذ هوجم المليك ، فكان نصيبه الهلاك . ولو بقي الفتح حيًّا وكان طاهر قريباً في بغداد لدارت على الباغي الدوائر ولكنه كان مدعوماً ، وخلا له الجو ، ففعل ما فعل من غير أن يجد معارضاً ، يقفه عند حدّه :

تعرَّض نصل السيف من دون فتحه   وغُيِّب عنه في خُراسان طاهره

ولو عاش ميْت أو تقرَّب نازح   لدارت من المكروه ثَمّ دوائره

ولو لعبيد الله عون عليهم   لضاقت على ورّاد أمر مصادره

وكأن ألمه قد اشتد في هذه الآونة لما أصاب سيّده المتوكل ، فأراد أن يتعزّى ، فلم يجد عزاءه إلا بالاعتراف بأن لكل شيء أمد ينتهي إليه ، ولكل عمر أجل لا بد أن ينقضي :

حلوم أضلّتها الأماني ومدة   تناهت وحتف أوشكته مقادره

وبدأ يتصوّر الخليفة مطروحاً على الأرض ، صريعاً يجود بنفسه الأخير ، فأخذته الحميّة ، وخيّل إليه أنه أقبل يدافع عنه بيديه ، فلم يُجد دفاعه لأنه كان أعزلاً في لباس الليل ، أما

لو كان ذا سلاح لشهر سيفه وسدّ على الفاتك طريقه بمهارته وبأسه :

صريع تقاضاه السيوف حُشاشة ... يجود بها والموت حمر أظافره
أدافع عنه باليدين ولم يكن ... ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى الفاتك العجلان كيف أساوره

مرثية البحتري في المتوكل

وثارت حميّته ، فقام يطالب ملحّاً بدم المغدور حتى حرّم على نفسه الأنس ما لم يرو الدم يسيل ثأراً للخليفة ، ولكنه لمّا تذكّر بأن لا أمل له بذلك ، طالما أن صاحب الحق في هذا الطلب ، ابنه المعتز ، شريك في مؤامرة القتل ، لمّا عرف ذلك تمادى في عاطفته ، وراح في اندفاعه متهوّراً يطعن صراحة بوليّ العهد ويتهمه علناً بالجرم ، فلا يرتجي منه أن يقوم بطلب الثأر ، وهو الواتر والموتور معاً . ولم يكتف بذلك بل قام يحرّض عليه وينادي بإسقاطه لأنه خائن غدر بالعهد ، والخائن لا يولّى :

حرام عليّ الراح بعدك أو أرى ... دماً بدم يجري على الأرض مائره
وهل يرتجي أن يطلب الدم واتر ... يدَ الدهر والموتور بالدم واتره
أكان وليّ العهد أضمر غدرة ؟ ... فمن عجب أن وليّ العهد غادره !

وكأنه شعر هنا بضعفه ، وبأنه لن يستطيع أن يحرّك العواطف ويثير الفتنة ، فعمد إلى الدعاء ، ملك الضعفاء ، يزيل به هموم قلبه ، أخذ يدعو عليه بعدم التوفيق والهناء فيما أمّله

لنفسه من عزّ وسلطان بعد موت أبيه ، وأن ينال منه الزمان فلا ينجو من صروفه ، هو ومن قام بفعل الغدر :

فلا ملّي الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره

ثم ختم قصيدته آسفاً جدّ الأسف على دماء المتوكل المسفوحة ظلماً ، يخاطب القتلة بكل جرأة موبخاً إياهم على سفك الدماء الطاهرة ، منددّاً بجبانتهم واستتارهم بسواد الليل ، راجياً أن يلاقوا جزاءهم من مخلص للمتوكل ، واسع العقل ، لا يهابهم مهما عظمت بوادرهم :

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر هرقتم وجنح الليل سود دياجره
وإني لأرجو أن تردّ أموركم إلى خلف من شخصه لا يغادره
مقلّب آراء تخاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

تحليل عاطفة البحتري في رثائه

هنا وقف أبو عبادة في البكاء على سيّده ووليّ نعمته ، وبهذه الدمعة جادت عينه ، هنا وقف في البكاء على من بدّل ذبول عيشه رغداً وعلى من اصطفاه وآثره حتى استمال قلبه فأعلن له صدق المحبّة ، بهذا القدر جاد خاطره ، وبهذه الصورة سمحت نفسه ، فهل فيها وفاء ذمم أو صدق ألم ؟

أما الوفاء في هذه القصيدة فيبدو ظاهراً جلياً لا شك فيه ، فقد قام البحتري بواجبه نحو المتوكل كاملاً ، ووفى بعهده حقّ الوفاء ، إذ حسبه أن يقول فيه هذه القصيدة ، فيخلّده فوق خلوده أبد الدهر ، بهذه الصورة التي أخرجها ناطقة واضحة عن

مصرعه وخاتمة حياته . فمن ذا الذي يقرأ هذه القصيدة ولا تبقى في ذهنه صورة عن تلك الليلة التاريخيــة ، تلك الليلة التي كان يحسبها المتوكل ليلة هدوء وراحة ، يجلس خالي البـال مطمئن الأفكار ، إلى شاعره ونديمه وقائده وحبيبه ، في سمر وحديث ، آمنين طوارق الحدثان ، متسربلين بلباس الليل ، عزلاً من كل وسائل الدفاع ، وإذا بالجو يعكر صفاؤه ، فينقلب هدوؤهم إلى دهشة ، وطمأنينتهم إلى روعـة ؟ من ذا الذي لا يتمثّل ذلك الفاتك الجبّار يهتّك الستائر على عجل ، ويظهر من تحتها بغتة ، منتصباً كالشبح الرهيب ، شاهراً سيفاً في حده الموت ، ثم هو لا يدع مجالاً لكلمة ، فما أن يقف حتى ييمّم شطر المتوكل الذي إليه يقصد ، فيصوّب نحوه الضربة ويهمّ بقتله ؟ وهنا ألا ترى الوزير المخلص ، الفتح بن خاقان ، ينهض للقيام بواجبه ورد الغارة عن مليكه ، فيقف بين الخليفة ومهاجمه ليحول بينه وبين تلك الضربة القاضية ، ولو في ذلك عرّض نفسه إلى خطر أكيد ، ويهوي الباغي بسيفه ، فتصيب الضربة كليهما معاً وتقضي عليهما في آن واحد فينطرحان على الأرض والدماء تسيل من جسميهما ؟ من لا يتصوّر ، وقد اطّلع على هـذه القصيدة ، ما حصل في القصر على أثر هذا الاغتيال ؟ فكأنني أرى الحركة الغريبة قـد بدأت من هـذه الناحية ، ثم انتقلت الرجفة إلى سائر أرجاء القصر ، فملأ الصياح ، وهمّ كل من فيه بالخروج . ولست أنسى

عاطفة البحتري ووفاؤه

حسان القصر المروّعات يسرعن في الهزيمة ويتعثّرن في أذيالهن ، فلا يلبث القصر أن يقفر لأنه ، فتسكن حركته ، ويذهب بهاؤه ورونقه إلى الأبد ، فيقضي الله أمراً كان مكتوباً . من لا تثبت في ذهنه هـذه الصورة لمجرّد قراءة القصيدة ؟ ليس حادث المتوكل بالحـادث الوحيد من نوعه في التاريخ ، بل إن صفحاته مملوءة بحوادث اغتيـال العظماء ، وقتل الملوك والأمراء ، فهل نذكر كيف مات غيره من عظماء الرجال غدراً كان أو جهراً ؟ لا أظن أنه تبقى في أذهاننا صورة عن دسائس القصور وخفايا البيوت كما بقيت هـذه الصورة ، فقد خلد بها المتوكل ، وقام البحتري بواجبه ، فلا شك في وفائه وإخلاصه ، لا سيما وقد عمد إلى المؤامرة فكشف عنها الغطاء ، وأعلن للناس جميعاً أن خليفتهم قتل غدراً بيد أثيمة واتفاق مشين مع ابنه المعتز ، وتجرّأ أن يناقش وليّ العهد الحساب ، ويتهمه بتدبير الاغتيال بغير شيء من التمويه ، في وقت هو أحوج فيه إلى إرضائه لمـا في يده من السلطان . فالوفاء في هذه القصيدة بادٍ من جميع وجوهه ، فلا عتب على البحتري من هذه الوجهة ولا تثريب .

عاطفة البحتري وألمه

ولكن الألم ، الألم الصادق الذي ينبعث عن الجوارح فيورث النفس حزناً وكآبة ، ويجعلها تشعر بأنواع الأثقال ومختلف الهموم ، إن هذا الألم الصحيح إن لم يكن معدوماً ، فهو ضعيف في هـذه المرثية ، لست أجد له أثراً كبيراً فيها . وأين أجد

عاطفتك أبا عبادة !! أأجدها في وصف القصر المقفر الذي ابتدأت به قصيدتك ، وليس فيه إلا الحسرة على الزمان الناعم الذي قضيته في ظل الخليفة ، وإلا الأسف على العيش الغض الذي عشته في هذا القصر ، فأنت تقول :

ورب زمان ناعم ثَم عهده ترقُّ حواشيه ويورق ناضره

وتقول : ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غض مكاسره

فما أظهر ضعف عاطفتك ! أين أجد صدق ألم الوليد ، أأجده في ذلك الوصف ، أم في هذه الندبة التي تخونه فيها عاطفته فلا يأسف إلا على الملك والسلطان :

فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت بهيبته أبوابه ومقاصره ؟

وأين عميد الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره ؟

عاطفة البحتري وألمه

لو صدق ألمه لندبه غير هذه الندبة ، ولنعته بغير هذه النعوت ، ما له لا يقول ذهب من لا نطيب الحياة ، ولا يلذ البقاء بعده ، ما له لو صدقت عاطفته لا يقول رحل فرحل السرور معه لما أصاب الفؤاد من حرقة وحزن ، ما له لو أحبه لا يقول لست أنساه مدى الحياة ، ما له لا يظهر أثر المصيبة في جسمه ؟ ـ ولكنه لم يشعر بشيء من ذلك كما يشعر به من برّح به حقًّا موت عزيز عليه ، وهو إنما يعبر عن عاطفته ، فلو شعر به لما أخفاه ، بل لأظهر نفسه إلا أن في اندفاعه لو صح ، وإقباله يدافع عنه بيديه ، من غير خوف ولا وجل :

أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره

لو صح ذلك لأمكننا الجزم بإخلاص البحتري وبما يدعيه من محبة خالصة ، ومع ذلك فإن هذا الإخلاص وهذه المحبة لا يكفيان للإقرار بشيء من الألم قاساه الشاعر لموت مولاه ، والقصيدة لاتدل على شيء من ذلك .

هذا لو صح اندفاعه ، ولكنني أعتقد أن هذه الشجاعة وهمية لا أصل لها ، وإنما ساقها البحتري ليبرّر موقفه الحرج . فلم يبق إلا بيت واحد يمكن أن يقال بأنه صادر عن قلب متألم ، ألا وهو :

حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دماً بدم يجري على الأرض مائره

إن هذا البيت ، على ما يظهر فيه لأول وهلة من معنى التألم ، ليس فيه بعد التأمل ما يؤكد ذلك ، فإن الراح كلّ ما يحرّمه على نفسه ، وإلى أمد ، حتى يؤخذ بدم القتيل ، ولا أظنه صبر على ذلك .

عاطفة البحتري وألمه

فلا سبيل إذن إلى تبيُّن الألم في أي ناحية من نواحي هذه القصيدة ، ولكنني عثرت له في رثاء الفتح بن خاقان على بيتين يجمع بهما الخليفة والوزير فيقول :

نديميّ لا زال السحاب موكلاً بجودكما بالسح والهطلان

فلو كان صرف الدهر حرّاً اعداكما إليّ وما ناصاكما وعداني

ولا شك بصدور هذين البيتين عن قلب مفعم بالألم ، فإن من يتمنى أن يفدي الآخر بنفسه لهو في أقصى درجات التألم

عليه ، ولكن الباعث لهذا الألم ما كان الحزن على متوكله ، وليس هنا محل الحزن عليه ، ولكن بعثته النزعة القوميّة والإباء العربي ، ألا تراه يقول قبل هذين البيتين :

أمن بعد وجد الفتح بي وغرامه ومنزلتي من جعفر ومكاني
أكانف مدح الأُرمنيّ على الذي لديه من البغضاء والشنآن
ومن خلق يستنكف الكلب أن يرى له جار بيت أو رضيع لِبان (١)

فقد أنف من مدح علي بن يحيى الأُرمني الغريب ، وقد كانف بمدحه ، من بعد أن كان يمدح أمثال المتوكل والفتح ، فآلمه أن تصل العرب إلى هذه الحال ، وهزّته النزعة القومية والإباء العربي فتمنّى لو دفن قبل سيّديه فلا يرى ما يرى .

لغته في هذا الرثاء

أما لغته في هذا الرثاء ، فليست لغة من يبكي حقاً ، ولا أثر لعاطفته فيها ، فهو لا يدع حزنه يملي عليه فيقول ، بل يفكر بأنه يرثي خليفة المسلمين ، والمقام يقضي عليه بأن يجوّد هذا الرثاء ، فيرصف الألفاظ وينسّق الأبيات . فالقصيدة ملؤها الصنعة والفن ، في كل بيت من أبياتها نوع من أنواع المحسنات البديعية الجميلة والأغراض البيانية الرائعة ، فيها الطباق :

تراوحه أذيالها وتباكره

وفيها الجناس :

أكان وليُّ العهد أضمر غدرة فمن عجب أن وليّ العهد غادره

---

(١) رضيع لبان : أخوه بالرضاع

وفيها الاستعارة :

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه   وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

إلى آخر ما فيها من بديع الصور اللفظية . فإن النفس المحزونة لا تفكر بشيء في الدنيا فضلاً عن أن تفكر بالألفاظ ترصفها وتنسقها . وفي الألفاظ نفسها ، مفردةً ، ما لا بوائم الرثاء ولا يلائم الحزن ، فهو وإن كان يبكي زماناً غبر ، ولكن هذه الألفاظ : « البهجة » و « البهاء » و « العيش الغض » و « الإشراق » و « الإزدهار » إلى غير ذلك من ألفاظ السرور وخفض العيش لا يفكر بها المفجوع ، حتى إنه إذا وقع على لفظ فيه شيء من معنى التوجع ، طابقه حالاً بما ينقضه من لفظة مشرقه ، فإذا قال « الأسى » في صدر البيت قال البهجة في عجزه :

إذا نحن زرناه أجدَّ لنا الأسى   وقد كان قبل اليوم يبهج زائره

وإذا ذكر الوحشة في الأول عاد إلى الأنس في الآخر :

ووحشته كأن لم يقم به   أنيس ولم تحسن لعين مناظره

فكأن ما كان فيه من عيش غض هو كل ما يشغل باله .

...

البحث في مرثية المتنبي

أما أبو الطيِّب المتنبي ، فقد كانت له جدَّة لأُمه ، تحمل له بين جوانحها حبًا خالصاً ، حبًا شريفاً يبعثه الحنوّ ويغذّيه الدم ، هي تحبه وهو يحبها ، حتى كان يبكي عليها في

حياتها إذا ما فكّر أنها شاخت فيخاف عليها من الموت :

بكيت عليها خيفةً في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

متحابّان فلا هي تريد أن يفارقها ولا هو يريد أن يبتعد عنها ، ولكنه لم يرض لها بضيق العيش وأراد أن يجعلها في نعيم ما استطاع ، فذهب يضرب في آفاق الأرض سعياً وراء الرزق ولو أبت عليه ذلك ورضيت بحالهما إبقاء على قربه :

طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما

مرثية المتنبي

ذهب فطالت غيبته ، فأرسلت إليه كتاباً تشكو به شوقها إليه وطول غيبته عنها ، وطال أمد الجواب فيئست منه . ولكن كيف لا يلبي أبو الطيب نداء جدّته ، فما أن وصل إليه كتابها حتى أسرع متوجهاً نحو العراق ، ولم يمكنه دخول الكوفة موطنه وموطن جدّته على حالته تلك ، فانحدر إلى بغداد حيث كتب إليها أن توافيه هناك ، فلما تناولت الكتاب ، وعرفت منه أن حفيدها لا يزال في قيد الحياة بعد يأسها منه ، حمّت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها . فكيف يقابل أبو الطيب هذه المفجوعة التي قتلها السرور وماتت به شوقاً :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمت بها غما

هي ماتت سروراً به وهو مات بها غماً .

ولقد عرفنا أبا الطيب متجلداً يهزأ بصروف الدهر ، ويجابه

الحوادث من كبريائه بما تستحقه من الاحتقار وعدم الاكتراث ، ولكنه في هذه المرة مهما حاول أن يتجلّد ، فلا يغضب على الأحداث ، التي حرمته من جدته ، لأنها غير خليقة بمدح ولا ذم ، ولا يأبه لها لأنه عرفها من قبل تحب ضرر الإنسان وأذاه :

ألا لا أُري الأحداث مدحاً ولا ذماً — فما بطشها جهلاً ولا كفها حلما
عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا — فلما دهتني لم تزدني بها علما
منافعها ما ضرّ في نفع غيرها — تغذّى وتروى أن تجوع وأن تظما

ومهما حاول أن يتعزّى بشيء من الفلسفة في سرّ الحياة :

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى — يعود كما أُبدي ويكري كما أرمى

مرثية المتنبي

على أيّ شكل حاول العزاء ، فليس يستطيع أن يكتم حزنه ، فقد أبت عواطفه إلا أن تظهر ولم يجده تجلّده ولا فلسفته نفعاً . وكيف لا يفيض قلبه حزناً ويذوب فؤاده حسرة ، وهو يتصوّر جدّته تتناول كتابه بيد مرتجفة ، طائرة من الفرح تمعن تأكيداً بلفظه وخطه وتتبيّن أسطره وحروفه ، حتى إذا ما ثبت لديها أنه منه وبخط يده ، زاد فرحها وانقلبت تجهش بالبكاء ، وعلى وجهها الكتاب تطبع عليه القبلات وتبلله بالدموع حتى استحال مداده إلى مائع أسود اصطبغت به أسنانها ومحاجرها ؟ كيف يقابل عاطفة من ما انتهت من بكاء السرور حتى أسلمت روحها بتأثير حمّى الفرح ، حاملةً له في قلبها حباً أدماه ، حباً لم يفارقه إلا بعد أن فارقت روحها الجسد :

تعجّبُ من لفظي وخطّي كأنما ... ترى بحروف السطر أغربة عصما
وتلثمه حتى أصار مدادُه ... محاجر عينيها وأنيابها سحما
رقا دمعها الجاري وجفّت جفونها ... وفارق حبي قلبها بعد ما أدمى
ولم يسلها إلا المنايا وإنما ... أشد من السقم الذي أذهب السقما

لقد قابل أبو الطيب هـذه العاطفة بمثلها ، فقد بادل جدّته المحبّة فبكاها بكاء مرّاً دلّ على عظم محبته لها ، فقد حنّ بعدها إلى الموت ، وهويَ القبر وحرّم على نفسه السرور ، وكيف يُدخل على قلبه شيئاً كان سبباً في موت جدّته :

أحنّ إلى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضمّا
حرامٌ على قلبي السرور فإنني ... أعدّ الذي ماتت به بعدها سمّا

مرثية المتنبي

وقد ملأت ظروف وفاتها قلبه أسفاً ، تأسف ألا يدركها قبل الممات فيتمتع بشيء من طيب روحهـا ، وألا يحضر وفاتها فيغمرها بعطفه وحنانه :

فوا أسفا ألاّ أكبّ مقبلاً ... لرأسك والصدر الذي ملئا حزما
وألا ألاقي روحك الطيب الذي ... كأنّ ذكيّ المسك كان له جسما

وتأسف ألاّ يستطيع الانتقام لها من مرضها :

هبيني أخذت الثأر فيك من العدى ... فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمّى

وقد اعتراه من هذه المصيبة الذهول ، فضاقت الدنيا عليـه بوسعها ، وانسدّت في وجهه ، وحار بصره فكأنه أعمى لا يرى :

وما انسدّت الدنيا عليّ لضيقها ... ولكنّ طرفاً لا أراك به أعمى

وقد زاد في ألمه أن يبدي فريق من الأعداء شماتتهم بيوم جدّته ، فاشتد غضبه عليهم ، وراح يتهدّدهم بقوته ، ويكيل لهم الوعيد مفتخراً بنفسه معتدًا بقدرته :

لئن لذ يوم الشامتين بيومها   لقد ولدت مني لأنفهم رغما
كان بنيهم عالمون بأنني   جلوب إليهم من معادنه اليتما

فلئن ماتت فقد خلّفت من :

تغرّب لا مستعظماً غير نفسه   ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً

وما زال بهم حتى استعظموا ما قاله .

تحليل عاطفة المتنبي في رثائه

بهذه الأبيات من الشعر أودع المتنبي عواطفه نحو جدّته ، وبهذه الالفاظ عبّر عما يختلج في فؤاده من الأحزان ، فما أرقّ عاطفته وما أبلغ الفاظه !

لحا الله أبا الطيب كم أبكاني معه وأنا أقرأ هذه القصيدة ، إن فيها من العواطف الصادقة ما يدفع القارئ في الحزن إلى جنب الشاعر ، فيحزن قلبه ويسيل دمعه ، إنني لا أستطيع ان أتصور جدّته تقبّل كتابه بعيون مترقرقة ، ثم تنحدر عيناها بدموع الفرح ، فتحمّ على أثرها فتموت ، إنني لا أستطيع ان أتخيّل تلك الصورة إلا ويستولي على شعوري الحزن ، فأجود بدمعة الألم .

ما أصدق عاطفة أبي الطيب ! فقد ثارت عواطفه على التجلّد والصبر ، فبدت كما هي لا يغطيها الرياء ولا يسترها التصنّع ، وما أسفه على عدم حضور وفاتها إلا مظهر من مظاهر هذه العاطفة ،

ولقد حنّ بعدها إلى الموت ، وهويَ القبر وتمنّى لو يضمه ، وهذا ما يحنّ إليه ويهواه ويتمناه كل موتور بعزيز ، فكثيراً ما شهدنا وسمعنا أن في الناس من يفقد عزيزاً عليه ، فيحاول أن يلقي بنفسه في قبره موءثراً الموت بقربه على الحياة بعيداً عنه ، ولكن في الناس من يمنعه عما يريد ، فيقف صارخاً صاخباً . أما في العشق الجنوني ، فالعشاق كثيراً ما ينتحرون على أثر مصيبتهم بمن يحبون . وقد حرّم على نفسه السرور ، وهذا ما يفعله كل مفجوع بفقيد ، فكثيراً ما حرّمت الأمهات الثواكل على أنفسهن السرور آحاد السنين ، لأن القلوب المحروقة لا تعرف للسرور معنى ، ولا تفكر بالسلوى .

عاطفة المتنبي في رثائه

وقد فعل الألم فيه فعله حتى شعر بأنه يكاد يموت غماً ، وانسدّت الدنيا عليه ، فلا يعرف ما هو فيه ، ثم حار نظره فلا يرى به ما أمامه ، فلست بكاذب أبا الطيّب ، إن الألم يغشي على الأبصار .

إن عواطف أبي الطيب في هذا الرثاء تخرج من أعماق القلب لا من بنات الفكر ، إنها عواطف قلبية خالصة ليس فيها شيء من التنميق والتذويق ، لا مبالغة فيها ولا إطناب ، وهي عواطف كلّ منا إذا لوّعته مصيبة . إن أبا الطيب لو لم يمل عليه قلبه لما استطاع أن يقول : أحنّ إلى الموت ، وأحرّم على نفسي السرور ، وحار بصري ، لأن مثل هـذا الشعور لا يمكن أن

يتكلفه ، إنه لو أملى عليه فكره لقال :

أنظر إلى العلياء كيف تضام ومآتم الأحساب كيف تقام

لغته في هذا الرثاء

ثم ألا ترى إلى لغته وألفاظه كيف تنم عن ألم حقيقي ، لقد عرفنا المتنبي بارعاً في تصوير الحروب ينفذ إلى كل دقيقة من دقائقها فيعطيها ما تستحق من شدّة اللفظ ، وعرفناه شاعر الحكمة قد اهتدى إلى ألفاظها السهلة ، ولكنه هنا قد برع في تصوير الألم واهتدى إلى ألفاظه . ففي قصيدته من الألفاظ المحزنة ما ينطبق على ما في نفسه منها . فقد ذكر « الثكل » و « اليأس » و « الترحة » و « الغم » و « القلب الدامي » و « السقم » إلى آخر ما حونه قصيدته من تلك الألفاظ التي تبعث في القلب لمجرّد ذكرها نفحة من الحزن ، فما بالك وقد صبّها أبو الطيب في قوالبها ، [ونفخ من عواطفه فيها] ؟ فكل شيء في هـذه القصيدة يدل على صدق العاطفة ، ولا عجب فمن صدقت عاطفته صدقت ألفاظه !

...

المقارنة بين القصائد الثلاث

والآن وقد تمّ لنا الوقوف على روح القصائد الثلاث ، فلنسع في شيء من المقارنة بينها .

نحن إذا طالبنا البحتري أن يألم لموت المتوكل لما له عليه من الأيادي والنّعم ، وأن يصدق حبه له لقاء حبه ، إذا طالبناه أن يألم كما ألم أبو تمام على فلذة كبده ، فقد باء البحتري بالخسران وتضاءل أمر ما قال ، فإن الفرق بين العاطفتين كبير ، والتباين

عظيم . فقد توفّر لكل منهما من بواعث الحزن ما توفّر للآخر ، كلٌّ منهما شاهد عزيزه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بل كان في موت المتوكل تلك الميتة القاسية ، مضرجاً بدمه ، ما يثير العواطف ويستفز الشعور ، ولم تسِل دماء ابن أبي تمام ، وإنما قضى على فراشه موتاً طبيعياً ، فأيّ المفجوعين أولى بالنواح ؟ ـ لا شك أن البحتري أولى . ولكنه لم يكن ذلك المحب الصادق ، فقد كان أبو تمام أُصدق عاطفة منه لبقائه متجلّداً محتملاً للآلام يقاسيها حتى لا يغادر عزيزاً عليه في آخر ساعة من ساعاته ، فظل يراقبه وهو يئن ويتقلّب ، ويحرّك لسانه ويغمض عينيه ، حتى وصفه لنا بتلك الصورة المحزنة ، وفي هذا الوصف دليل على إطالة النظر إليه ، وفي هذه الإطالة دليل على شدة اهتمام الشاعر به وحبه القوي له . أما البحتري فماذا قال عن فقيده وقد شاهده صريعاً :

عاطفة البحتري وعاطفة أبي تمام

صريع تقاضاه السيوف حُشاشة　　يجود بها والموت حمر أظافره

ثم وقف هنا ولم يتعدّه . فكيف كانت حال المتوكل عندئذ ؟ هل تغيّر لونه ؟ أين أصابته الضربة ؟ كيف كان ينتفض من الألم ؟ هل غارت عيناه ؟ هل كان يصيح من الألم ؟ ما هي آخر كلماته ؟ إلى آخر ما يمكن تفصيله في مثل هذه الحال ؟ كل ذلك لم يره البحتري ، ولو صدقت محبته لكان حريصاً عليه يراقبه أشد المراقبة ، كما حرص أبو تمام على مراقبة أحوال ولده قبل موته . ولعلّك تقول إن الوقت لم يسمح للبحتري أن يقف مليًّا

على ذلك المشهد المؤلم ، لما أحدث هجوم الغادر من الرعب في القلوب ، فأقول إن هذا دليل آخر على ضعف عاطفة البحتري . فإن المخلص المحب لا يترك عزيزاً عليه في مثل تلك الحال ليستسلم إلى الهرب . وقد رأينا مثال الإخلاص يقدمه الوزير « الفتح » بإقدامه يتلقّى الضربة عن سيده بمجرّد جسمه فيموت عند قدميه . أما قول البحتري .

أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثني الأعادي أعزل الليل حاسره

عاطفة البحتري وعاطفة ابي تمام

إن هو إلا كذب وبهتان ، لأنه لو فعل حقيقة لما أبقى عليه الباغي ولضربه بسيفه ضربة ألحقته بسيده في أسرع من لمح البرق . ولكن عاطفته قد خانته عندئذ ، فانهزم وصوّر الحادث كما وقع ، وفي ذلك وفاء كما بيّنا . ومع ذلك فللبحتري في تهجمه على وليّ العهد الغادر واتهامه والدعاء عليه ، وهو أمنع من أن يُتهجّم عليه ، عاطفة لا بأس بها ، وإن كان يغلب على الظن أن هذه القصيدة لم تذع في وقتها ، ولكنها على كل حال عاطفة طيبة . ومهما يكن من صدقها ، فإنها لا تشبه عاطفة أبي تمام . أفتظن أن أبا تمام يلجأ إلى الفرار فيما لو رآى ابنه في خطر الموت ؟ حاشا لله ! إنه يقبل ويدافع عنه كأنه يدافع عن نفسه ، كما يفعل كل ذي حب صادق .

وأيّ شيء في قصيدة البحتري يدل على حبه للمتوكل ؟ فقد قال أبو تمام إنه كان بابنه صباً وإنه سيبقى قريباً من قلبه ولن

ينساه مدى الحياة ، ولكن أبا عبادة لم يفه بكلمة في هذا المعنى . ثم كيف كان وقع المصيبة عليه ؟ فقد شعر أبو تمام بأن لحمه كان كأنه يبرى ويتقطع ، وبأن الحزن قد بلغ إلى قلبه فكاد أن يقطع وتينه . فماذا فعل الحزن بالبحتري ؟ ليس في قصيدته ما يدل على شيء من تأثير الحزن في جسمه ، لأنه لم يشعر بشيء من ذلك ، ولو شعر به لما خلت منه قصيدته .

أما الألفاظ فمن حيث الصنعة والفن ، البحتري أصنع في قصيدته ولا شك . أما من حيث دلالتها على العاطفة ، فشتان بين عاطفة من تخطر بباله في تلك الساعة الرهيبة ألفاظ العيش الناعم من البهجة والبهاء ، وبين من لا تستطيع مخيلته أن تتصور أكثر من الاستكانة والأنين والغصة ، إلى غير ذلك من ألفاظ الألم والتوجع .

أقول ذلك إذا أردنا أن نطالب البحتري أن يعطف على سيده كعطف أبي تمام على ولده ، ولكن ليس لنا أن نطالبه بذلك ، لأنه مهما تمادى في حبه وأخلص له ، لن يبلغ محبة الوالد لولده . وحسبنا أن نرى في قصيدة البحتري شعر الوفاء وفي قصيدة أبي تمام شعر الألم الحقيقي .

عاطفة البحتري وعاطفة زميليه

أما المتنبي فتختلف حاله عن حال زميليه ، فهو لم يشهد جدته تموت ، بل كان بعيداً عنها ، هي في الكوفة وهو في بغداد ولكنه يتأسف لذلك ويتمنى أنه لو كان بجانبها يقبل رأسها

وصدرها :

فوا أسفاً ألا أكبّ مقبلاً   لرأسك والصدر الذي ملئا حزما

لو كان بجانبها لما فارقها لحظة ، ولبقي يدقق في أحوالها كما فعل أبو تمام بجانب ابنه ، ولكان أخرج لنا صورة أخرى للنزع ، إن لم تضارع صورة أبي تمام فقد تفوقها . ومع ذلك فإن لمرثيته في جدته طابعاً خاصاً ، فقد طبعت بفرط الحس وكرم العاطفة وطيب القول

لم يتسن له رؤيتها ، ولكن كان له من حادث موتها بحبه ما جعل لسانه يفيض بلواعج نفسه ، فقد بادلها الحب حتى عدّ بُعدها في الحياة ثكلا ، وقاسى في موتها من تبريح الحزن ما قاسى أبو تمام لفقد ولده فقد وقع الحادث عليه موقعاً أليماً حتى تمنّى اللحاق بها ، وحتى حار بصره فلا يرى به من شدة الحزن . وهذه العواطف كما قلنا تخرج من أعماق القلب بالطبيعة لا بالتكلف ، ولم تجىء لغته وألفاظه إلا مؤيدة لما في قلبه ، فقد رأينا أنها لغة الحزن والألم

عواطف الشعراء الثلاثة

وهكذا فقد اختلف الشعراء الثلاثة في مواضع واتفقوا في مواضع ، أما تصوير الموت الذي ينشأ عن شدة تعلق الشاعر بالفقيد ، فلم يتيسّر للمتنبي حتى نحكم له أو عليه ، وتيسّر للبحتري وأبي تمام فتفوّق فيه أبو تمام تفوقاً زائداً كما رأينا ، أما التعبير عن لواعج النفس تجاه المصيبة وأثرها في الجسم ، فقد كاد أن يلمسه البحتري

لكنه وقف وتراجع ، وكذا كان في لغته ، وتسابق الآخران في هذا المضمار ، فوصلا على ما أعتقد في وقت واحد ، أو تقدم المتنبي لقرب عواطفه من الحقيقة .

فإن كان لا بد لكلٍّ منهم من رتبة في صدق عاطفته ، فالبحتري يتأخر ، ويتنازع أبو تمام وأبو الطيب الأولية .

انتهى

Good luck

This is the worst
book on earth!!

قدّمت هذه الرسالة إلى اللجنة الفاحصة في ١ حزيران سنة ١٩٣٢

وتمّ طبعها في أواخر رمضان المبارك سنة ١٣٥١
وكانون الثاني سنة ١٩٣٣

وقع في هذا الكتاب بعض الأغلاط المطبعية التي
لا تخفى على القارىء الفطن